

الاتصال الجوّاري وإستراتيجية التغيير

مصطفى كمال لصطب

كلية علوم الإعلام والاتصال جامعة الجزائر 3 (الجزائر).

تاريخ الاستلام: 2019/ 04/05؛ تاريخ المراجعة: 2019/ 05/27؛ تاريخ القبول: 2019/ 05/29

ملخص:

أصبح الاتصال الجوّاري إستراتيجية للتغيير وحل الكثير من المشاكل وفي جميع القطاعات، كما أنه منهج للتوعية والتحسيس لتجنب الوقوع في المشاكل والأزمات، ويبرز ذلك أكثر في تبنيه كإستراتيجية ليس فقط في وسائل الإعلام بل وفي جميع المجالات الأمنية والثقافية والرياضية، وحتى في الجانب السياسي خصوصا أثناء التعبئة السياسية والحملات الانتخابية. يملك الاتصال الجوّاري خصائص تجعل دوره فعالا في التغيير الاجتماعي، وذلك بالتقرب من الأفراد مهما كانت فئاتهم وانشغالاتهم، ومهما اختلفت أعمارهم ومشاكلهم، فمن الصعب احتواء الأزمات خارج جواريتها بعيدا عن المجتمع المحلي بكل مقوماته وخصوصياته ومؤسساته كالأسرة والمدرسة والمسجد وغيرها، فالاتصال الجوّاري يبدأ من القاعدة ومعرفة تفاصيل الوضعية بالكامل.

الكلمات المفتاحية: الاتصال الجوّاري - التغيير - الإستراتيجية - الأزمة

Abstract:

The communication of proximity has become a strategy for change and solving many problems in all fields. It is also a method of awareness and awareness to avoid falling into problems and crises. This is more evident in its adoption as a strategy not only in the media, but also in all areas of security, culture, sports, political mobilization and electoral campaigns. It is difficult to contain crises outside their environment away

المؤلف المرسل: مصطفى كمال لصطب، باحث (طالب دكتوراه سنة رابعة)

from the local community with all its components and characteristics and institutions such as the family, school, mosque, etc. The communication of proximity starts from the base and knowledge of full status details.

Keywords: Communication of proximity - change - strategy – crisis.

1. مقدمة:

التغيير سنة كونية، نراه كل يوم في حياتنا، فيما يهمنا وفيما يحيط بنا، قد يكون بالشكل الذي نريد أحيانا وضد ما نبتغيه أحيانا أخرى. لكن المغيّر فردا أو مجموعة، يسعى دوما إلى التحكم في هذا التغيير وتوجيهه حسب ما يريد وما يراه الأصلح انطلاقا من عدة أحكام قيمية، واستخداما لعدة وسائل وآليات تتغير بتقدم السنين، فقد استعمل الإنسان كل الوسائل الخسنة والناعمة. وبما أن الرغبة في التغيير قوية في أغلب الأحيان، يتجه صاحبها إلى الاقتراب أكثر من الآخر قصد محاولة التأثير فيه والبحث عن الخصوصيات المشتركة بينه وبين هذا الآخر سواء كان مجموعة أو فردا، في علاقة اتصالية أفقية تقلص الفوارق وتزيح الاختلافات، تاركة المجال لما يعرف بالجوارية. أصبح الاتصال الجوّاري إستراتيجية للتغيير أكثر من أي وقت مضى ليس فقط بسبب فشل بعض السياسات الوطنية والدولية في التغيير كونها بعيدة عن الواقع وأكثر شمولية، بل لأن الفرد عاد إلى علاقاته الاتصالية الأولى بالآخر والتي أثبتت نجاعتها في تمرير الرسالة وفي التغيير. سنحاول تقريب مفهوم الجوّارية عموما، وإبراز آليات إستراتيجية الاتصال الجوّاري في التغيير من خلال وصف وتحليل عمل القائمين بالاتصال الجوّاري في ولاية غرداية وفي مجالسها العرفية خلال الصراعات. من هذا المنطلق نلج الدراسة بطرح الإشكالية الآتية: إلى أي مدى يساهم الاتصال الجوّاري في التغيير؟

2. الاتصال الجوي وخصائصه

الجوار لغة من المجاورة والجار الذي يجاورك. وجاور الرجل مجاورة وجوارا وجوارا. والجار الشريك في العقار والجار المقاسم. (ابن منظور، 1997، ص 485)

لا يزال مفهوم الجوارية غير دقيق في الكثير من الدراسات، كما أن تحديد مفهوم الجوارية يختلف حسب المجال الذي تُعرّف وتستخدم فيه، ولكن العامل المشترك هو أن هناك تقاربا بين طرفي الاتصال سواء كان هذا التقارب هو القاعدة التي تنطلق منها العملية الاتصالية أو الغاية التي تسعى إليها.

بين الارتباط بالمكان والارتباط الشعوري يشير استخدام مصطلح الجوارية إلى حقلين دلاليين هامين : فقد يشير إلى القرابة من، وهو الأمر الشائع الدال على المسافة الجغرافية القابلة للقياس الكمي، أو إلى الشعور بالقرابة من، للإشارة إلى العلاقة الخاصة سواء كانت لغوية أو ثقافية أو دينية أو غيرها. ولهذا فتصور العلاقة الجوارية أو القرابية هو تصور تنظيمي يحيل على صلات اجتماعية وعلائقية، فالقرب لا يتعلق بالبعد المحلي أو غير المحلي، بل بطبيعة ومعنى وجدوى وشدة هذه العلاقات النوعية والذاتية. (دليو، 2010، ص 250، 251)

1.2 الاتصال الجوي: هو عملية إنتاج واستقبال رسائل خاصة بين المرسل والمتلقي تخدم القيم الفكرية والثقافية والجغرافية المشتركة، بطريقة قريبة مواجهة مباشرة وغير مركزية، تعتمد على كل الوسائل والوسائط الممكنة شريطة ألا تؤثر على الخصائص المشتركة للأفراد ومحيطهم وفضائهم، بطريقة تلبى توقعاتهم الجوارية الحميمية.

إن صفة الجوارية في الاتصال تفترض الاستمرار الزمني للعلاقة والخدمة، وتتدمج مع فكرة الالتزام والثقة، مع تسبيق للعلاقات الأسرية والصدقة على

الالتزام، الذي يكون عادة خادما للجوارية وميسرا لها. يختلف مفهوم الاتصال الجوّاري عن المصطلح الشهير "مجتمع الاتصال"، وبعيدا عن الوسائل الرقمية وأجهزة وسائل الإعلام، يدعو الاتصال الجوّاري إلى تثمين العلاقات التبادلية بين الفاعلين في المؤسسة في المحيط الأقرب إلى مكان عملهم. (LIBAERT, 2001, p 44,45)

2.2 خصائص الاتصال الجوّاري: يملك الاتصال الجوّاري مزايا عديدة من المنظور التفاعلي، أي أنه يركز على الشخص ومفهوم التبادل، وبشكل أكثر دقة وتحديداً على البيئة التي يتم تضمينه فيها. يغلب السياق المحلي على تقدير بناء ومصداقية التفاعل، ومنه فإن هذا الاهتمام بالمحلي هو الشيء الوحيد الذي يسمح بتعزيز التعامل بالمثل في العملية التبادلية، ولا يركز الاتصال فقط على الخلاص والتحرر، بل أيضا على مهارة الاستماع، (LIBAERT, 2013, p 12) ويمكن تلخيص خصائص الاتصال الجوّاري في ما يلي:

- تواطئ الطرفين المستقبل والمرسل، أي تقاسم العملية الاتصالية ومحاولة الوصول لغاية مشتركة.
- تحقيق التفاعل الإيجابي بين طرفي العملية الاتصالية الجوّارية أو أطرافها العديدة.
- تشخيص الرسالة وتحديد المصطلحات والابتعاد عن العموميات والسياسات المركزية.
- نابع وموجه لمجتمع محلي واحد.
- عدم الخروج عن الخصائص والقيم الاجتماعية والثقافية المشتركة للمجتمع.
- محدودية النطاق الجغرافي والنسق العلائقي.

- محاولة تحقيق احتياجات المرسل والمتلقي على حد سواء .

- التركيز على العلاقات الإنسانية والتبادل في مسار الاتصال، وإمكانية إحداث التفاعل بين أبناء المجتمع والمساهمة في تنشيط الحياة الاجتماعية التي تحدث التماسك بين أفراد المجتمع المحلي. (براردي، 2016، ص 28)

3. آليات الاتصال الجوّاري في التغيير

في الوقت الذي يواجه فيه الاتصال المؤسّساتي نقطة تحول على ما يبدو، بحيث يتأرجح بين صفارات إنذار التكنولوجيات الجديدة للمعلومات التي لا تعترف إلا بشبكات التواصل عن بعد، المدعم عالميا، وبين الاتصال المركز على المحلية، فإن علاقات الوجه للوجه المنضوية تحت الاتصال الجوّاري اللامركزي تعمل بالقرب من الجمهور ومن قيمه بشكل أكثر من ذي قبل، وبصورة عملية حقا على المدى البعيد، (LIBAERT, 2013, p 12) وترتبط ممارسة الاتصال الجوّاري والتقرب من الآخر بما يعرف بالمجتمع المحلي، وهو البيئة الأولى للاتصال الجوّاري نظرا لما يتوفر عليه من خصائص، فمن خلال تعريفه على أنه جماعة من الناس تسكن في بقعة جغرافية معينة وتزاول نشاطات اقتصادية وسياسية مشتركة ولها تنظيم اجتماعي وإداري يحد طبيعة حكمها كما أن لها مصالح وأهداف متبادلة. (براردي، 2016، ص 26)

كغيره من المجتمعات، يتعرض المجتمع المحلي للتغيير وللأزمات والصراعات، وكلما كان المجتمع معرضا للتغيير الاجتماعي الشديد، كلما كان معرضا للصراع الثقافي في مجموعته أو بين أفرادها وجماعته، مما يثير اضطرابا لدى بعض الأفراد وبالتالي يصبحون عرضة للانحراف وسوء التوافق في شتى صورة وأشكاله. (حسن، ص 638، 639)

1.3 آليات التغيير بالاتصال الجوّاري: تعتمد إستراتيجية الاتصال الجوّاري في عملية التغيير على آلية التشاركية في تحليل الوضع وتحديد الهدف وتوجيه مسار التغيير، وللوصول إلى هذه الغاية فإن هذه الإستراتيجية تعتمد بالأساس على خصائص الاتصال التي سبق ذكرها والتي تمثل آليات للتغيير خاصة إذا كان التغيير حضاريا أو ثقافيا أو اجتماعيا أو تنمويا، ويتجسد ذلك من خلال الآتي:

- المكان: فالبيئة الجوّارية والفضاء الجغرافي المشترك يحدد أطراف الاتصال ويفتح المجال للجميع في المشاركة في التغيير، كما أن الحيز المحدد والمشارك يضم المجهودات ومساعي الجميع ويسهل عملية تحقيق التغيير دون أن تضيق سدا في فضاء كبير قد لا يمكن احتوائه مثلما هو الحال مع أنواع الاتصال الأخرى الأوسع والأشمل.

- الزمان: يمثل الاتصال الجوّاري إستراتيجية دائمة الممارسة، أي أنه ممتد لما قبل وأثناء وبعد الفترة المراد تجسيد التغيير فيها، فهو لا يكتفي بتغيير شيء ما والانصراف عنه، بل يدرسه قبل التغيير ويوجه مساره فيما بعد، وبما أن الاتصال الجوّاري عملية مستمرة بشكل يومي بين أفراد المجتمع المحلي ومؤسساته، فإن عملية التغيير تصبح سيرورة حياتية يومية.

- المضمون: تتمثل آلية المضمون في التركيز على احتياجات المجتمع الجوّاري والقيم الاجتماعية والثقافية المشتركة.

- الأسلوب : تعتبر التفاعلية والمبادلة والعمق وتشخيص القضايا والحالات، آليات فعالة لإستراتيجية الاتصال الجوّاري فبابتعادها عن العموميات وعن الاتصال العمودي يمكنها تحقيق التغيير، فهي تعتمد على الخطاب التبادلي الأفقي المباشر.

- الوسائل: علاوة على مشاركة الجميع من المعنيين بالتغيير تستخدم إستراتيجية الاتصال الجوّاري وسائل جوارية مشتركة مثل اللغة المشتركة أي اللهجة المحلية أو الكلام والمفردات المتعارف عليها في إطار المجتمع المحلي وقيمته ووسائل الإعلام الجوّارية، ومؤسسات التنشئة الجوّارية كالأُسرة والمسجد وأعيان المنطقة والمؤثرون فيها، والمنتخبون المحليون.

2.3 التغيير من الحراك إلى الاستقرار، أحداث غرداية 2013-2015:

جاءت أزمة غرداية الدامية من 2013 إلى 2015، كذروة لسنوات استثنائية (2004 إلى 2015) من الاحتجاج الاجتماعي-السياسي في ولاية غرداية تحديداً، وفي الجنوب الجزائري عموماً، معبرة عن بدايات صعود حركية تغيير اجتماعي عنيفة مثيرة للجدل الإعلامي والسياسي والثقافي والحقوقية والإستراتيجي. (حجاج، 2015، ص 8، 9) امتدت الأحداث في أربع بلديات أكثر من غيرها من المناطق الأخرى عبر إقليم الولاية، وهي غرداية والقرارة وبريان وبنورة مخلفة حصيلة ثقيلة من القتلى والجرحى وحرق للممتلكات والمنازل.

صحيح أن الجيش الوطني الشعبي هو من أوقف الأحداث الدامية والصراع العنيف الذي رسم المشهد العام في أزمة غرداية لحوالي سنتين، إلا أن الكثيرين في غرداية يرون بأن الوجود المكثف مجرد تهدئة، أما الحل الجذري للأزمة فيجب أن ينبع من المتخصصين أنفسهم باستعمال وسائل الاتصال العديدة، وعلى رأسها الاتصال الجوّاري.

لم تقتصر ممارسة الاتصال الجوّاري في معالجة أزمة غرداية على طرفين اثنين، من إباحيين ومالكيين، بل شملت أيضاً السلطة في السعي لمعالجة الأزمة، ممثلة في المسؤولين المعيّنين والمنتخبين المحليين. كما نجد المجتمع

المدني والمجالس المحلية العرفية، والناشطون في وسائل التواصل الاجتماعي. يعتقد والي غرداية عز الدين مشري (مقابلة شخصية، 22-10-2017) أن هذا الاتصال بكل خصائصه كان سببا في حل الأزمة وفي توعية الناس خصوصا وأنه استُخدم كإستراتيجية في شهر رمضان فالمجتمع في غرداية مجتمع متدين وذلك ما يجمع المالكيين والإباضييين، فالخطاب الديني فعال جدا من خلال التواصل المباشر والجواري.

مارست هيئة العزابة -وهي المؤسسة المهمة بتسيير الشؤون الدينية في منطقة مزاب- الاتصال الجواري من خلال اللقاءات المباشرة بالناس في التجمعات العادية والمناسبات كالأعراس والمآتم، من خلال الدروس الوعظية وخطب الجمعة المركزة على ضرورة الهدوء وعدم الانجرار وراء كل دعوة مغرضة، بالإضافة إلى توجيهات الأعيان والجمعيات بضرورة التأطير والمتابعة اليقظة. يؤكد الأستاذ وعضو مجلس العزابة قاسم حاج محمد (مقابلة شخصية، 13-01-2017) أن كل هذه الخطوات التي اتبعتها العزابة كان لها تأثير في بث الثقة في النفس وعدم اليأس والصبر على تجاوز الظروف والتحكم في الشباب ومنعهم من التعدي والظلم.

في بلدية العطف مثلا، كان هناك اتصال جواري مباشر مع الطرف الآخر وحراسة مشددة ومداومة ليلية، وقد ساهم ذلك في عدم تأجيج الأزمة ونشوب أي أحداث دامية برغم قربها من غرداية عاصمة الولاية. إن الاتصال الجوّاري إستراتيجية فعالة وجزء من الحل، بالموازاة مع التدخل الأمني ويكفيهما العمل سويا، يقول حاج عيسى إبراهيم بن محمد، رئيس مجلس أعيان قصر العطف (مقابلة شخصية، 26-12-2016). يُرجع عضو مجلس أعيان العطف ورئيس جمعية البشائر لولاية غرداية عز الدين قادري، (مقابلة شخصية، 27-12-2016) تاريخ ممارسة الاتصال الجوّاري في هذه البلدية إلى عام 1985، حيث

يتواصل أعيان الطرفين من أجل كبح الأزمات والفتن، وقاية وتلقيح قبل الإصابة والحذر من أن تزحف الأزمة من القرارة أو بريان أو غيرها. الآليات في الحوار القبلي هي الحوار المباشر مع الشباب الحراسة الليلية والتوعية خصوصا في نقاط التماس بين الأحياء الإباضية والمالكية في العطف. يؤكد الناشط في وسائل التواصل الاجتماعي حاج سليمان (مقابلة شخصية، 26-12-2016) أنه من خلال هذه الإستراتيجية ساهم الاتصال الجوّاري في تمرير المعلومة ونشرها بين الناس وبالتالي صار آلية للتغيير وحلا للأزمة.

يرى الأستاذ قاسم حاج محمد أن الاتصال الجوّاري يكتسب فعاليته لتوجيه الرأي العام حين يقوم على مبدأ الثقة بين الطرفين والاتصال الميداني الذي يحبذ الناس بدلا من الخطاب عن بعد، وما يجعله إستراتيجية فعالة لحل الأزمة، هو اللقاء المباشر بالكلام المقنع، اختيار الموضوع، اختيار الكلمة التي تقنع القلب والعقل، اختيار المتحدث ممن يكون له وزن ثقيل وتأثير في المجتمع.

في حديثه عن الاتصال الجوّاري، يعتقد عمر بكري بن محمد أحد أعيان الإباضيين ودليل سياحي في غرداية (مقابلة شخصية، 25-12-2016)، أن العلاقة تغيرت من الجوّارية إلى علاقات مدنية في غرداية العاصمة، حتى وإن وُجد الاتصال الجوّاري قبل الأزمة إلا أنه لم يكن صريحا واضحا. أما مدير إذاعة الجزائر المحلية من غرداية مختار بهناس (مقابلة شخصية، 27-12-2016) فيقترح أن تنشئ جمعيات مختلطة على مستوى الأحياء تسوق لفكرة التوافق، يكون رئيسها إباضي والنائب مالكي أو العكس ويقومون بنشاطات مشتركة، وليكون الاتصال الجوّاري فعالا يجب أن يكون وقائيا قبل الأزمة، لأن العنف لما يسيطر على منطقة ما يصبح الحل صعبا. لا تكمن أهمية الاتصال الجوّاري كإستراتيجية في حل الأزمات وحسب، بل أيضا في التنمية المحلية

والإقناع وفي نقل ما تنجزه الدولة. لا بد من الجوارية في الإعلام والاتصال لدحض الإشاعة.

أجمعت عينة الدراسة على وجهة نظر واحدة وهي أهمية الاتصال الجوّاري في معالجة أزمة غرداية من جذورها سواء اشتطرت شروطا للممارسة الجوّارية أو عبرت عن رغبتها في القضاء على المعوقات التي تحول بين إستراتيجية الجوّارية ومعالجة الأزمة، ولكن الواقع اليوم وفي ظل الممارسة المحتشمة وغير الممنهجة والمدرّوسة للاتصال الجوّاري جعلت عينة المستجوبين مختلفة الآراء متعددة الرؤى لمستقبل المنطقة.

4. نتائج البحث:

- الانغلاق والتعاشيش المحتشم والضيق بين الإباضيين والمالكيين ساهم في نشوء الأزمة بينهما.

- كل من الإباضيين والمالكيين استخدم وسائل عديدة لحل الأزمة منها الخطب المسجدية واللقاءات المباشرة في الأماكن العامة، وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي وغيرها، ولكن أغلبها كانت مبادرات فردية لم يتشارك فيها الطرفان.

- ساهمت وسائل التواصل الاجتماعي والفيسبوك على وجه التحديد في نشر الإشاعة وتعميق الأزمة وزرع الفتنة أكثر من مساهمتها في التهدئة والحل.

- لم يمارس الاتصال الجوّاري بشكل إستراتيجية مخططة ومدرّوسة، يشترك فيها كل المعنيين من الطرفين وبالخصوص في خضم الأزمة.

- يجمع المستجوبون على أن حل أزمة غرداية يجب أن ينبع من أطراف الأزمة أنفسهم في إطار ما يعرف بإستراتيجية الاتصال الجوّاري.
- ساهم الاتصال الجوّاري الذي مورس في البلديات التي عاشت الأزمة في التقليل من حدة الأحداث لا أكثر، والسبب أنه لم يكن ممنهجا مخططا له في إطار إستراتيجية تراعي الزمان والمكان والأفعال والمعنيين.
- ممارسة الاتصال الجوّاري بين الإباضيين والمالكيين في بلدية العطف قبل أثناء وبعد أحداث العنف كان سببا في منع وصول الأزمة، بحيث تمت ممارسته بشكل وقائي وتوعوي.
- يعتمد نجاح الاتصال الجوّاري كإستراتيجية لمعالجة الأزمات على خصائصه التي تميزه عن باقي أنواع الاتصال الأخرى، واختيار الوقت المناسب لممارسته ودرجة كثافة الممارسة في الفضاء الجغرافي والحميمي للمنطقة وسكانها.
- تكمن نجاعة إستراتيجية الاتصال الجوّاري كحل وقائي قبل الأزمة أكثر من تحقيقها لنتائج ايجابية في خضم الصراع الدامي.

5. خلاصة:

من خلال ماسبق يتبين أن الاتصال الجوّاري إستراتيجية قادرة على إحداث التغيير المنشود من قبل القائم بالاتصال أو المتلقي على حد سواء، وذلك باستغلال خصائصه كالتفاعلية وما بعدها، التشخيص والتواطؤ مع القضايا المختلفة. لقد أثبتت نتائج التجارب المختلفة أن الاتصال الجوّاري لا يقل أهمية عن باقي أنواع الاتصال الأخرى في قدرته على إحداث التغيير، وفي كثير من الأحيان يكون أنجع من إستراتيجيات وطنية مركزية أو دولية شمولية قد تغفل

خصوصيات المنطقة وخلفيات القضية أو الأزمة، ورغبات القائمين بالاتصال الجوي والمعنيين بالتغيير.

على الرغم من فعالية الاتصال الجوي وتكلفته المادية البسيطة مقارنة بالاستراتيجيات غير الجوية الأخرى، إلا أنه لا يحظى بكل الاهتمام والتجريب في البحث عن التغيير الذي تريده الحكومات أو الأفراد، ويرجع ذلك لعدة أسباب منها حدائته ونقص المتكويين المختصين فيه.

الإحالات والمراجع:

باللغة العربية:

الكتب:

- ابن منظور الإفريقي المصري، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (2011). لسان العرب. ط1. دار صادر. بيروت. لبنان.
- براردي، نعيمة. (2016). الإعلام المحلي في الجزائر الواقع والرهانات، قراءات في الإعلام المحلي. ط1. دار جيطلي للنشر. برج بوعرييج. الجزائر.
- حسن، محمود. مقدمة الخدمة الاجتماعية. دار الكتاب الجامعية. الإسكندرية. مصر.

المقالات:

- حجاج، قاسم. (2015). "غرداية أزمة ممتدة في عهد بوتفليقة". المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسة قطر: 8-9.

- دليو، فوضيل. (2010). "من جغرافيا المسافات إلى جغرافيا العلاقات".
الباحث الاجتماعي (قسم علوم الإعلام والاتصال جامعة منتوري قسنطينة):
العدد 10: 250-251.

باللغة الأجنبية:

- LIBAERT, Thierry. (2013). Communication (s). éditions
DUNOD. Paris. France.
- LIBAERT, Thierry. (2001) la communication de proximité
éditions liaisons. Paris. France.